

تقديم

مثيرة جداً ومحيرة في آنٍ واحد الحياة الخفية للشعوب ، تلك الحياة التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، والوهم بالواقع ، وتعتمد على الحدس العقلي ، والتكهن بما سوف ينفع من خلال مجموعة الحقائق والمقدمات التي يبني عليها الخبير السرى في أجهزة الدولة الخاصة للمخابرات نتائجه وتوقعاته بما سوف يكون عليه الحال في المستقبل .

* فقد يتوقع من خلال تلك الحقائق والأدلة نشوب حرب مستقبلية تغير الشكل السياسي لمنطقة معينة .

* وقد يتوقع أيضاً تغييراً اقتصادياً وفكرياً « فلسفياً وعقائدياً مترتباً على التغيير السياسي والعسكري في دولة ما .

وأكبر دليل على ذلك من هذا الذى ذكرناه آنفاً هو ماتوقعه « سيرجى نيلوس » الكاتب الروسى في ذلك الكتاب الوثائقى الذى أوقع في يده عن طريق الصدفة تلك الوثائق السرية للمؤامرات اليهودية من أجل السيطرة على العالم .

فأخرج لنا كتاب « برتوكلات حكماء صهيون » ؛ فتنبأ من خلاله بسقوط روسيا القيصرية ، وإحلال البلشفية مكانها . وتنبأ أيضاً بنشوب حرب عالمية في هذا الكتاب .

وتنبأ أيضاً ببناء وطن قومى لليهود . للعلم كانت أول طبعة لهذا الكتاب سنة ١٩٠٦ .

والشئ العجيب والمحير أيضاً أن الذى توقعه حدث بالفعل ، بل وأكثر منه .

والكتاب الذى بين أيدينا من هذا النوع ، فهو يحكى قصة الصراع المخابراتى والجاسوسى للدول العظمى بينها وبين بعضها ؛ فيوضح لنا مرارة الحياة التى يحيها هؤلاء الرجال الذين يحترفون هذا النوع من العمل الشاق المضى ، وما يترتب عليه من نتائج فى الغالب تكون هلاك العميل أو تعرضه لأشد أنواع العذاب من قبل رجال مخابرات الدولة المعادية التى يعمل ضدها إذا انكشف أمره .

ولكن ثمة وقفة تسترعى النظر للقارئ المدقق حين يطلع على مثل هذا النوع من

الكتب - ماهى الفائدة التى تعود عليه ؟ أو بالأحرى ما الفائدة التى تعود على الدولة من كتاب مثل هذا ؟

* أولاً معرفة أحدث النظم المخبراتية لتلك الدول العظمى والإفادة منها ، وليس في هذا عيب ، فنحن نعرف أنهم يملكون الحضارة المادية وسيطرون عليها ، ويصدرون إلينا كل غثٍ تافه ؛ فينتشر بيننا انتشاراً يكاد يغلف حياتنا ، فالأحرى أن نتمسك بالشئ الذى يجعلنا نملك الحضار ونهيمن عليها .

* ثانياً جعل هذا العمل مادة علمية تدرس لطلبة المدارس من المرحلة الثانوية كما يحدث في كثير من الدول المتقدمة ، فهى من قبيل التاريخ السياسى أو العلوم السياسية التى تركز في ذهن الطالب المعرفة الحقيقية للعالم الذى يحياه ويعيش فيه ، فهو عالم المعلومات .

ونحن بدورنا كدار نشر نحاول أن ننشر في وطننا العربى أحدث ما ألف في هذه الدول فننتشره مترجماً إلى العربية حتى يفيد منه القارئ العربى العادى ، ناهيك عن المتخصص .

وعلى الله قصد السبيل

« دار رشاد »

مقدمة

لا يزال جهاز المخابرات السرية البريطانية المعروف باسم « إم آى ٦ » يتمتع بسمعة واسعة بين سائر أجهزة ووكالات الاستخبارات العالمية .

ولا يزال ضباط المخابرات البريطانية يتمتعون بالصيت الذائع حول العالم بأنهم محترفون ومحنكون وأهل للثقة والاعتماد والمسئولية ، وذلك على الرغم من قائمة الفضل والإخفاق التى تعرض لها جهاز المخابرات السرية البريطانية ، تلك القائمة التى نالت الشهرة والذيع .

ولم تؤثر الثورات السياسية أو الاضطرابات العسكرية فى ذلك الجهاز الاستخبارى الذى استفاد من ميزة الاستمرارية التاريخية دون انقطاع ، مما أدى إلى اكتسابه فوائد التقاليد المستقرة وأضفى عليه طابعاً أسطورياً ، ولاغربة أو دهشة فى ذلك ، فهو بمثابة الصورة الحسنة التى عززت مصداقيتها الحكومة البريطانية ، كما زادها شهرة الأعمال الفنية السينمائية والتلفزيونية والقصص الروائية والدرامية التى عرضت للأعمال الخفية للاستخبارات البريطانية وذلك فى هوليوود العالمية ، ناهيك عن أقوال الصحافة وتقاريرها التى تناولت الـ « إم آى ٦ » .

ولقد فتن الجواسيس وأعمال الجاسوسية والعمليات السرية رجال الصحافة منذ زمن غير معلوم ، ليس بسبب أن تقاريرهم الصحفية عن الاستخبارات تكشف فحسب الأسرار الحصينة على نحو يؤثر فى جماهير القراء ، بل أيضاً لأنها موضع اهتمامات الجماهير العريضة من القراء ، ولقد زاد الاهتمام فى أعقاب عام ١٩٤٥ لأن المؤرخين وغيرهم صار بوسعهم ولأول مرة أن يكشفوا نتائج أعمال المصادر النشيطة ورجال المخابرات السرية البريطانية وأعمالهم البطولية وتضحياتهم من أجل الـ « إم آى ٦ » ، إبان الحرب العالمية الثانية .

ثمة سبب آخر لذلك الاهتمام المتعاظم ألا وهو أن سائر الحكومات حول العالم ، اعتمدت اعتماداً كبيراً أثناء الحرب الباردة على أجهزة المخابرات التابعة لدولها إلا أن الفهم الصحيح لذلك كله وتلك الأنشطة سار محدوداً وضييقاً جداً ؛ لأن الحرب السرية

بين الشرق والغرب استمرت بدون انقطاع ، وعلى مدار أربعين عاما لم يلقَ الباحثون المجتهدون الذين غاصوا بدراساتهم في عالم الجاسوسية ، لم يلقوا سوى حوائط صماء بكساء قوامها الصمت ، مما جعلهم يكررون ببلاهة المعلومات المشوهة المدسوسة عمداً للتضليل ، أو استطاعوا في أحسن الأحوال أن يضمنوا أبحاثهم نتفا من الحقيقة وفي الوقت الذي أصبحت فيه حُجُب السرية مبررة بأن مطالب الحكومات تقتضى من الاستخبارات أن تصنع سياساتها وفق تكتُّم شديد وحرص بالغ ، كما أن هناك حالات تقتضى فيها حاجات الحكومات أن تضرب ستارا كثيفا من السرية على أنشطة الاستخبارات ليس من أجل حماية حرمة الجهاز الاستخبارى فحسب بل أيضا من أجل حماية المنظمة المخبراتية من الإرباك أو الاختراق ، وتقع تلك الظروف التى عالجهها كتاب « الأخطبوط الأحمر » فى هذه الفئة .

ويرجع سبب الشروع فى تدبيح هذا الكتاب إلى الظهور المفاجيء للمستر « كيم فيلبى » على شاشات التليفزيون فى جمهورية لاتفيا السوفيتية فى خريف عام ١٩٨٧ ، وفى ذلك اللقاء الذى عرضه التليفزيون البريطانى ، ادعى الجاسوس السوفيتى أن القلائل القومية التى كانت تكتسح آنذاك دول البحر البلطيقى سببها هو السخط العام أو سياسات المكاشفة والمصارحة الـ « جلاسنوست » التى اتبعها الكريملن فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت موضع اهتمام متعمد من جانب جهاز المخابرات السرية البريطانية والحكومة الإنجليزية ، وقال « كيم فيلبى » : إن سياسة المكاشفة ماهى إلا تكرار وإعادة لسياسات واستراتيجيات جهاز المخابرات البريطانية السرية التى انتهجها البريطانيون فى دول البحر البلطيقى إبان ذروة الحرب الباردة .

وفى فبراير ١٩٨٨ ، ذكرنى « بارى بينروز » بادعاءات « فيلبى » التى بدت غير قابلة للشرح أو التفسير فى ذلك الحين ، أما الكتب المنشورة فقد أشارت فقط إلى فقدان جهاز المخابرات السرية البريطانية لعملائه الذين زج بهم إلى داخل الاتحاد السوفيتى فى أعقاب عام ١٩٤٥ ، فى حين أن « أنتونى كافيينديش » وهو أحد ضباط المخابرات البريطانية السابقين ذكر دوره المحدود فى العمليات المنفذة فى البحر البلطيقى بأسلوب يثير الخلاف وبطريقة المذكرات الشخصية ، أما سبب التجاهل فهو بسيط ، حيث أراد كل من الضباط الاستخباريين فى كل من لندن وواشنطن أن يطبقوا نوعا من الكتمان والسرية على كارثة محددة .

ولقد استحثنى كل من « بينروز » و « جورج كارى » و « فيل ويات » و « فيلب نايتلى » و « روبيرت الاسون » عضو البرلمان ، و « توماس باورز » .. على السفر مرارا وتكرارا على مدار الأشهر الاثنى عشر التالية عبر أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ؛ لاستكشاف الحقائق التى قال بها المستر « فيلبى » .

ولقد بدأت البحث وسط جملة مصادفات غير متوقعة كلها عبارة عن تناقضات وتضاربات فى المواقف ، وفى حين كنت فى لندن ، أدخلت الحكومة البريطانية إجراءات تقييد تقييدا شديدا أية نوع من أنواع الحديث حول أنشطة أجهزة المخابرات السرية البريطانية .

ولقد تحدثت أثناء الأشهر التسعة التى قدمت أثناءها طلب زيارة الاتحاد السوفيتى وكان المسئولون فى موسكو ينظرون فى شأن الزيارة ، تحدثت مع حوالى مائتى ضابط من ضباط المخابرات السابقين ، والعملاء السابقين ، والزعماء المهاجرين والخبراء العاملين فى أوروبا وشمال أفريقيا .

أما مسألة تجزئة المعلومات ، وهى أمر ضرورى ومتطلب من أجل الأمن ، فقد كانت تعنى أن هؤلاء الأفراد الذين خدموا داخل جهاز المخابرات السرية البريطانية أو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أو أجهزة مخابرات ألمانيا الغربية والسويد والدنمارك وفنلندا فقد كانوا مدركين فقط مثل تلك القصة التى أثرت على عملهم الخاص وفى نفس الوقت الذى كان الجميع فيه يعرفون أن عمليات جهاز المخابرات السرية البريطانية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد انتهت نهاية مفاجئة وماسقته ، فلم يدرك أحد فى الغرب أو يفهم الصورة الكلية للحقائق .

لهذا السبب ، حينما سمحت لى الحكومة السوفيتية فى نوفمبر ١٩٨٨ بالاطلاع على المعلومات والوصول إلى العملاء والجواسيس المأسورين والذين لايزالون أحياء من عملاء جهاز المخابرات السرية البريطانية ووكالة الاستخبارات المركزية ، فضلا عن كبار المسئولين العاملين فى المديرية الثانية الكبرى التابعة لجهاز أمن الدولة السوفيتية أو الـ « كى جى بى » ، داخل الجمهوريات السوفيتية المطلة على البحر البلطيقى ومنها « لاتفيا ولتوانيا » فقد عرفت على وجه الدقة أسماء أولئك الذين أردت أن أعقد معهم لقاءات ومقابلات ، كما عرفت أيضا بعض التفاصيل المتعلقة بأنشطتهم .

ولقد عاوننى « بول هامان » و « كولين كاميرون » المسئولين فى تليفزيون هيئة

الإذاعة البريطانية على زيارة دول البحر البلطيقى ثلاث مرات ، مما هياً لى الفحص المرة تلو المرة ثم إعادة الفحص تكرارا فى روايات وجدال كل من الطرفين ، وهو العمل الذى تكشف عن وجود عملية خداع كبرى وغير عادية دبرتها أجهزة المخابرات السوفيتية المعروفة باسم الـ « كى جى بى » .

وعلى جانبى الستار الحديدى ، كانت ثمة تساؤلات لاتزال غير مجابة مما تسبب فى الإحباط ، ففى بعض الأحيان كان العذر فى عدم الإجابة هو « الأمن » ودواعى الأمن ، وفى مناسبات أخرى ، وجدت أن الشخص الوحيد الذى بإمكانه وحده فقط أن يسدى لنا المعلومات الدقيقة والمطلوبة ، قد انتقل إلى الرفيق الأعلى .

وفى أحيان أخرى كنت أتعرض للارتباك والتخبط الناتج عن تضارب المعلومات وتناقضها الشديد ، مما جعلنى أشعر بأن المسائل كلها مدبرة على نحو وثيق من أجل التضليل والخداع وتضييع أية فرصة ممكنة من أجل معرفة الحقيقة ، وهى ظاهرة معروفة فى عالم المخابرات الخفى باسم « المرايا المتوحشة أو المجنونة » ، ولايسعنى إلا أن أوكد أنه يتمخض على ذلك أن بعض التكهينات والاستنتاجات المنتقاه من هذا التضارب الوحشى ، ثبت أنها دقيقة جداً وصائبة وأنها قد لمست عين الواقع الحقيقى .

وأتوجه بجزيل شكرى إلى شخصين لولاهما لما خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود وهما المستر « مايكل شو » الذى كان لحماسه وتشجيعه كبير الأثر فى إتمام هذا الكتاب ، كما أشكر زوجتى « فيرونكا » التى تحملت الوحدة التى يفرضها الكاتب على زوجته وفقاً لما يقتضيه العمل ...

لندن

المؤلف

« المصطلحات المختصرة »
لأجهزة المخابرات والتنظيمات المختلفة
التي ورد ذكرها في الكتاب

- ١- سى - اى - ايه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية
- ٢- سى - اى - سي فيالق مكافحة المخابرات المعادية .
- ٣- دى - بى الأشخاص المرحلون عن أوطانهم لأسباب عرقية أو طائفية أو دينية .
- ٤- إف - بى - اى مكتب التحقيقات الفيدرالى .
- ٥- جى - سى - اس رئاسة هيئة الأركان المشتركة .
- ٦- كى - جى - بى لجنة أمن الدولة فى الاتحاد السوفيتى .
- ٧- ال- سى - سى مجلس لاتفيا المركزى .
- ٨- ان - كيه - فى - دى البوليس السرى السوفيتى .
- ٩- ان - سى - اس مجلس الأمن القومى .
- ١٠- ان - تى - اس التحالف القومى للعمال « الاتحاد السوفيتى » .
- ١١- او - جى - بى - يو الأمن الروسى الداخلى .
- ١٢- او - ام - جى - يو - اس مكتب الإدارة العسكرية « الولايات المتحدة » .
- ١٣- او - بى - سى مكتب تنسيق البوليس .
- ١٤- او - اس - او مكتب العمليات الخاصة .
- ١٥- او - اس - اس مكتب الخدمات الاستراتيجية .
- ١٦- او - يو - ان منظمة القوميين الأوكرانيين .
- ١٧- او - يو - ان - ار منظمة القوميين الثوريين الأوكرانيين .
- ١٨- بى - سى - او مكتب الرقابة على جوازات السفر .

- ١٩- بي - اتش - بي - سى لجنة تخطيط مواقع المعادين .
- ٢٠- اس - اى - اس هيئة المخابرات السرية « تغير اسمها من وقت لاحق إلى إم - ١٦ »
- ٢١- اس - ام - تى هيئة المخابرات الحربية السويدية .
- ٢٢- اس - او - اى هيئة العمليات الخاصة .
- ٢٣- اس - اس - يو وحدة الخدمات الاستراتيجية .
- ٢٤- فى - ال - اى - كيه اللجنة العليا لتحرير لتوانيا .
- ٢٥- دبليو - اى - ان الحركة البولندية من أجل الاستقلال والحرية .
